

فصلنامه تحقیقات جدید علوم انسانی

Human Sciences Research Journal

دوره چهارم، شماره ۲۸، تابستان ۱۳۹۹، صص ۲۷۹-۲۹۰
New Period 4, No 28, 2020, P 279-290

شماره شاپا (۲۴۷۶-۷۰۱۸) ISSN (2476-7018)

تجلیات الاغتراب فی شعر القتال الکلابی

م. د. کاظم خضیر القاضی

الملخص

الاغتراب ظاهرة انسانية (سايكو اجتماعية) تقوم على التنافر بين الذات والمجتمع او الذات والاخر، ترجع اسبابها الى عوامل مكانية وزمانية ودينية وتنشأ عن ظروف قاهرة لمأساة عاشها الفرد، او لتجربة ظرفية سحرية يشعر معها الانسان بالانسلاخ والاستلاب وضعف القدرة على التكيف والموائمة مع المجتمع، وقد يتبع هذا الاحساس كثير من التخيلات والحدس المنعش والهذيان وغيرها من التداعيات التي وجدناها حاضرة بقوة في اشعار القتال الكلابي وشعراء اخرين احاقت بهم دائرة التوحد والاغتراب. وعلى الرغم من شيوع ظاهرة الاغتراب في الادب العربي لم تتجاوز التعريفات التي وضعت لها حدود الدلالات العربية المعاصرة والتي اختمر معظمها في فضاء معرفي خاص له حيثياته وبواعثه التي قد تتجانس مع الثقافة العربية او تتنافر معها، الامر الذي يحتم علينا معاينة مفهوم الاغتراب في الثقافة العربية وتقصى دلالاته المختلفة، وقد اتخذنا من اشعار القتال الكلابي منطلقا لفهم ومعاينة تلك الظاهرة.



Manifestation of alienation of kital el kalby

Kadheem khudheer Kadheem

PhD Literatur Ancient, Ministry of education, department of Thi-Qar
education province

Abstract:

Alienation is a human phenomenon (Psycho social) based on dissonance between the self and society or the self and the other, due to spatial, temporal and religious factors and arise from the compelling circumstances of the tragedy experienced by the individual, or to experience a magical circumstantial with which human beings feel separation and alienation and the weak ability to adapt and adapt to society. This sense is followed by many imaginations, refreshing intuition, delirium and other repercussions that we have found strongly in the notice of al-qital alkulabi and other poets caught up in the circle of autism and alienation. In spite of the prevalence of the phenomenon of alienation in the Arab literature, the definitions that have been set for it have not exceeded the limits of the contemporary Western connotations, and most of them are brewed in a special knowledge space that has its own reasons and motives that may harmonize with or interfere with the Arab culture. Its various connotations, we have taken from the notice of al-qital alkulabi based on the understanding and preview of that phenomenon

توطئة:

الاغتراب ظاهرة إنسانية (سايكو اجتماعية) تقوم على التنافر بين الذات والمجتمع او الذات والاخر، ترجع اسبابها الى عوامل مكانية وزمانية ودينية* وتنشأ عن ظروف قاهرة لمأساة عاشها الفرد، أو لتجربة ظرفية سحرية يشعر معها الانسان بالانسلاخ والاستلاب وضعف القدرة على التكيف مع المجتمع (١) وقد يتبع هذا الاحساس كثير من التخيلات والحدس المنعش والهديان وغيرها من التداعيات التي وجدناها حاضرة في اشعار القتال الكلابي وغيره من الشعراء العرب الذين احاقت بهم دائرة التوحّد والاغتراب كالشعراء الصعاليك والخلعاء وعترة وطرفة بن العبد (٢) والكميت والطرماح وابى عبيدة بن قيس الرقيات وابو نؤاس وابى تمام والمنتبى والمعري (٣) فالشعور بالاغتراب مترسخ ومتناه في القدم والاتساع ولا يخص عصر معين او طائفة من الشعراء، فهي ظاهرة انسانية عامة، لها ما يميزها في الادب العربي (٤) وعلى الرغم من شيوع هذه الظاهرة في الادب العربي لم يتجاوز مفهوم الاغتراب حدود الدلالات الغربية المعاصرة التي اختتم معظمها في فضاء معرفي خاص له حيثياته وبواعثه التي قد تتجانس مع الثقافة العربية او تتنافر معها، الامر الذي يحتم علينا معاينة مفهوم الاغتراب في الثقافة الغربية وتقصى دلالاته المختلفة ليتسنى لنا تعبيد الطريق لهذه الدراسة.



تحديدات اولية:

اولا: الاغتراب لغة واصلاحا:

اتفقت المعاجم العربية على ان الاغتراب هو البعد والنوى والغربة عن الوطن، ففي معجم العين: (الاغتراب من الوطن، وغرب فلان عنا يغرب غرباً، أى تنحى، وأغربته وغربته، أى نحيتة، والغربة: النوى والبعد (٥) اما ابن منظور فيقول: (الغرب: الذهاب والتنحى عن الناس، وقد غرب عنا، يغرب، غرباً. . وغرب وأغرب وغربه وأغربه أى نحاه، والغربة والغرب: التزوح عن الوطن والاغتراب). (٦) وكلمة غربة تقال في الاغتراب عن الحال (٧)

والاغتراب عاطفة تستولى على المرء فيعيش حالة من القلق والكآبة لشعوره بالبعد عما يرغب فيه، وقد تبرز هذه العاطفة في شكلين أحدهما في حالة الابتعاد عن ديار الأحيه، فيعبر المغترب (الشاعر) عن مشاعره بصور وأخيلة ومعانٍ تختلف جودة وعمقاً باختلاف الشخصية المبتكرة، والثاني في حالة الشعور بأن العالم كله سجن أقحم فيه الانسان مرغماً، فكبله بقيوده، وغمره بشروبه وآلامه، فهو يحس بأنه غريب بين أهله، وقد شاع هذا النوع من الغربة في أشعار الرومانسيين، وبلغ أوضح ملامحه في أشعار المتصوفين كالحلاج، وابن الفارض، وابن عربي (٨) والاغتراب يتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالاً وثيقاً فالمرحلة الأولى تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي، ويتدخل وعى الفرد لوضعه في تشكيل المرحلة الثانية، أما المرحلة الثالثة فتعكس على تصرفه إنساناً مغترباً على وفق الخيارات المتاحة أمامه. (٩)

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي الفلسفي للاغتراب

يستمد مصطلح الاغتراب (Alienation) معناه من فعل (Alienare) اللاتيني ويعني تحويل شيء لملكية شخص آخر، أو الانتزاع والإزالة وهذا الفعل مستمد بدوره من فعل آخر هو (Alienus) أى ينتمى إلى شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ (Alius) الذى يعنى الآخر سواء كان اسم أو صفة، ثم تعددت استخدامات هذا المصطلح، ليشير الى الاغتراب الداخلى والاغتراب الدني، ثم اتسع ليشير لاغتراب الذات عن واجباتها (١٠) وقد كان لليونانيين محاولاتهم الخاصة في تحديد هذه المفهوم اذ (كانوا يريدون بالاغتراب حرمان الإنسان من حقه الطبيعي أو القانوني، وكان أفلاطون؟ الذى اغترب عن أخلاقيات عصره ومجتمعه، ودعا إلى إقامة جمهورية فاضلة يحكمها الفلاسفة حتى يتحقق العدل- يقصد به ابتعاد الإنسان عن عالم المثل، وعيشه في عالم أرضى طارئ بدون إرادته). (١١) ويعد الاغتراب عند هيجل اعتزالاً دينياً (طبقاً للتصورات المسيحية عن الخطيئة والسقوط والطرْد والحَرمان، وهذا المعنى سيتعمق أكثر لدى الهيجليين الشبان؛ من أمثال باور (١٧٩٢-١٨٦٠م)، وفيورباخ (١٨٠٤-١٨٧٢م)، وشتراوس (١٨٠٨-١٨٧٤م). يرى فيورباخ أن الكشف عن الاغتراب لا يتم إلا من خلال فلسفة الدين. فالاغتراب؟ أساساً- هو الاغتراب الدني، والاغتراب الدني هو أساس كل اغتراب فلسفى أو اجتماعى أو نفسى أو بدنى)*



ويرى أريك فروم إن الاغتراب (نمط من التجربة يعيش فيها الإنسان كشيء غريب، ويمكن القول إنه أصبح غريبا عن نفسه، إنه لا يعود يعيش نفسه كمرکز للعالم وكمحرك لأفعاله)(١٢) فالإنسان وفقا لرؤيته فروم يبدع أوثانا يسجد لها وأصناما يعبدها، وهنا يكمن جوهر الاغتراب. في عملية الاغتراب اذ يتنازل المرء عن نفسه إزاء استسلامه لقيم المجتمع السائدة (١٣) و يرى فروم بأن الاغتراب البشري بدأ عندما انفصلت الذات المثالية عن رحم الطبيعة الميتافيزيقية وذلك بسبب الأثم الذي ارتكبه الوالد البدئي (آدم) وهو تجاوزه للحدود الذي وضع له الخالق و اكله من ثمرة شجرة المعرفة. هذه المقاربة الميثولوجية التي بدأ بها فروم هي فقط اشارة و توظيف رمزي و استعارى لأزلية و قدم حالة الغربية و الحيرة و انه يعتقد بأن بقاءه (الفرد) منذ ذلك الزمان و لحد الآن هو تأملات و تخيلات يوتوبية لأجل دفع الاثم عليه كي يحصل مرة اخرى على النعمة الآدنية (اشارة الى جنه عدن) التي كان الوالد ضربها عرض الحائط و حاول رفض الوصاية على وجوده. هذا التوظيف للرموز الميثولوجية يعطينا القناعة بان العامل الذاتي المنبعث في العمق الداخلي للفرد له الدور المماثل بل الاقوى في التغييرات التي تحصل على الشخصية بصورة عامة. (١٤)

وهذا التوصيف الذي قدمه فروم يترجم لنا يامعان دقيق البواعث النفسية للعقل الجمعي التي تدفع دائما وابدا الى الاعتزال و الشعور بالاغتراب، كما يترجم واقع الخطيئة والرفض التي مثلها الشاعر - كما سنرى - فهو (يمثل صورة متطرفة لمقاومة كل ما سنته الدولة من تنظيمات كما يمثل الثورة على الاستقرار)(١٥) و يبدو ان مفهوم الدولة افرغ عند القتال الكلابي سيكولوجيا بالأبوة التي انسلخ عنها ولم يعد يشعر بها او يدين لها بالولاء والطاعة. وما يبيح لنا مثل هذا التأويل بروز الملمح العجائبي في بعض الروايات التي تحدثت عن حياة الشاعر وادخلتها في نسق اسطوري عام اذ اختلطت هذه الحكايات بالموروثات الاسطورية التي تناقلتها بكر بن كلاب قبيلة الشاعر فقد مضى على تحدر هذا الموروث القبلي بين اساطير القبيلة وحكاياتها زمنا طويلا مما سمح للخيال بشيء من التزايد واعادة واعان على ذلك تلك الطبيعة الاجرامية التي لم تكن بعيدة عن القتال، وحفز اليه طبيعة جانب من الرواية عن الاعراب يومئذ، وهي طبيعة فضحها الجاحظ بقوله: (انهم اى الرواة كما كان الاعرابي اكذب في شعره كان اطرف عندهم وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه اكثر) فاذا استأنسنا بهذا الراي لم نبعد في الاستنتاج اذا ظننا ان اخبار القتال قد واجهت شيئا من هذه المظاهر (١٦)

نوازع القلق ومظاهر الاغتراب عند القتال الكلابي:

تظافرت عوامل كثيرة على تعميق شعور الاغتراب عند الشاعر منها عوامل مباشرة واخرى غير مباشرة نستطيع اجمالها بما يأتي:



١- التناثر الاجتماعي وصراع الحضارة و البداوة:

ولد القتال الكلابي عبيد بن مجيب بن المضرحي الكلابي أواخر العصر الجاهلي، وعاش في الإسلام حتى أيام عبد الملك بن مروان وقد شهدت هذه الفترة التي عاشها الشاعر - والتي تمتد الى أكثر من نصف قرن - تبدلات اجتماعية كبيرة تحولت معها بعض الاقاليم والامصار العربية التي تحيط بها الى مدن واسعة الثراء فاحشة الترف بما خلفه الصحابة من اموال طائلة وثروات كبيرة جلبوها من البلدان المفتوحة، فقد كانت تفتد على مدن مثل مكة والمدينة اموال الخراج والغنائم والجزية التي فرضها المسلمون على الامم والبلدان المفتوحة، وقد لحق هذا الثراء ظهور المباحج والزينة والبناء والقصور فقد طعموا وشربوا في اوانى الذهب والفضة ولبسوا الخز والديباج والاستبرق والحلل الموشاة وغالوا في ذلك كثيرا (١٧) قبل ذلك لم تتغير بعض الاقاليم وبقيت على سيرتها الاولى بما عليها من شظف وامحال، ومن تلك البقاع اقليم نجد موطن البداوة والتصح الذي نشأ فيه القتال الكلابي قبل ان يتحول الى طريد في مفازات الجزيرة واغوار وديانها الموحشة. فمثل هذا التفاوت الاجتماعي لا بد ان يترك اثره البالغ وبصماته الواضحة على شخصية القتال الكلابي (١٨) خصوصا وان الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول الاكرم وانتهاء الفترة الراشدة صارت تفرض سيطرتها على القبائل البدوية بالقوة العاتية وتتجاوز معها حد الاعتدال في الاعمال الشاقة التي كانت تجبر عليها القبائل البدوية ومن بينها كلاب التي فرضت عليها اعمال (السخرة) في مناجم المعادن والذهب القريبة من ديارها (١٩)

ان هذا الفقر المدقع الذي بليت به القبائل البدوية ولد حالة من التفاوت الطبقي الذي يصطلح عليه في علم الاجتماع التناثر الاجتماعي وهو ما يرادف كل تغير يقع في المجتمع وكلما كان التغيير اكبر و أسرع كان التناثر الاجتماعي اشد و أكثر تنوعاً. وسبب التناثر إن عناصر التراث الاجتماعي لا تتغير كلها على وتيرة واحدة أو بسرعة واحدة فمنها ما يتغير بسرعة وعلى درجات متفاوتة وهذا يؤدي إلى ظهور بعض المشاكل الاجتماعية، والتي ظهرت بشكل بارز في اوائل العصر الاموي فقد كانت حياة معظم العرب واقعة تحت تأثير القيم البدوية بينما كانت حياتهم الفكرية متأثرة بالتعاليم الاسلامية، فكانوا يشعرون في باطن انفسهم بالتناقض بين ما يفعلون وما يقولون وقد ادى هذا الوضع المتناقض الى صراع نفسى من ناحية، والى قلق اجتماعى من ناحية اخرى (٢٠) لذلك لم ترفض تلك القبائل سياسة الدولة التعسفية فقط وانما رفضت التحول الاجتماعي برمته لأنه كبلها وكبت روح التحرر عندها لذلك نفرت من نظم الدولة وترى في انعامها وحياتها الرعوية ما هو اجدى من العمل والخضوع لسلطان الدولة القهرى (٢١) ولو تقصينا قصائد الشكوى والتضرع التي بثها بعض الشعراء البدو طلبا للعون والاستغاثة لتبين لنا ذلك الامر على اكمل وجه. وما شكايه الراعى النميرى لعبد الملك من تعسف المصدقين الظالمين الا صورة مختزلة لذلك الواقع (٢٢) اذ يقول:

إِنَّ السُّعَاءَ عَصَوَكَ حِينَ بَعَثْتَهُمْ = وَأَتَوْا دَوَاعِيَ لَوْ عَلِمْتَ وَعُغُولاً
 إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا = لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فِتِيلاً
 أَخَذُوا الْعَرِيفَ فَقَطَّعُوا حِزْمَهُ = الْأُ صَبَّحِيهِ قَائِماً مَغْلُولاً



حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ = لِحَمًا وَلَا لِفِؤَادِهِ مَعْقُولًا
 نَسَى الْأَمَانَةَ مِنْ مَخَافَةٍ لَفَحَ = شُمُسَ تَرَكْنَ بِضَبْعِهِ مَجْزُولًا
 كَتَبَ الدُّهَيْمُ وَمَا تَجَمَّعَ حَوْلَهَا = ظَلَمًا فَجَاءَ بِعَدْلِهَا مَعْدُولًا
 وَعَدُوا بِصِغْهِمْ وَأَحْدَبَ أَسَارَتَ = مَمْنَهُ السَّيَاطُ يِرَاعَةُ إِجْفِيلاً
 مَتْنِ عَامِلٍ مِنْهُمْ إِذَا عَيَّبَتْهُ = غَالِي يَرِيدُ خِيَانَةَ وَغُلُولًا
 خَرَبَ الْأَمَانَةَ لَوْ أَحْطَتْ بِفَعْلِهِ = تَرَكْتَ مِنْهُ طَائِقًا مَفْصُولًا (٢٣)

لذلك يذهب الدكتور حسين عطوان الى القول أن الظلم السياسي كان أكبر مشكلة استولت على تفكير الصعاليك، وان مشكلتهم الرئيسة الفقر الذي سَعَا للتغلب عليه بالاعتصاب والانتهاج (٢٤)

لذلك اسهمت سياسية الدولة المتعسفة والتبدل الاجتماعي في رسم ملامح الشاعر وتشكيل شخصيته المغتربة و زيادة حدتها (فالأزمات التي يمر بها المجتمع قد تُرِيد الضغوط الحياتية للفرد مما يؤثر ذلك على بعض اهدافه الحياتية التي خطط لها في وقت مضى اذ يصعب عليه بلوغها مما يُعرضه لأحباط وعدم الرضا عن حياته كما ان غياب مصادر الاسناد الاجتماعي، اثناء تلك الازمات من الممكن ان يبعث على الاغتراب ولعل من الاسباب الاخرى الباعثة على الاغتراب ضعف الاندماج بين الفئات على مراكز القوة والسلطة في المجتمع) (٢٥)

وهناك ابعاد كثيرة للغربة، وهي الغربة النفسية والاجتماعية والفكرية والمكانية، ويمكن تحديد مفهوم الاغتراب اجزائياً. . . (بأنه اضطراب نفسي ينشأ من نبرات الشاعر التي يمر بها مع نفسه ومع الآخرين ولا تتصف بالتواصل والرضا ويُصاحبها العزلة والاحساس بالتمرد والرفض والتشاؤم الامر الذي يؤدي به الى الاستسلام، والابتعاد عن الاهل والأوطان) (٢٦)

ثانياً: التآرجح بين الذات والقبيلة:

كانت نفسه القتال الكلابي متأرجحة بين الوعي بقيمة الانتماء لقبيلة كليب - التي يفتخر بصراحة نسبة فيها - وبين الشعور بالضياع والحزن والتمرد على تلك القبيلة التي لفظته اذ يقول:
 انا ابن اسماء اعمامى لها وابي اذا ترامى بنى الاموان بالعار
 لا ارضع الدهر الا شدى واضحه لواضح الخد يحمى حوزة الجار (٢٧)
 و يصرح في مكان اخر عن نزقه وشعوره بالاسى لأنه ينتمى الى هذه القبيلة التي لم تحفظ له كرامته ويتمنى لو انتسب الى قبيلة اخرى اكثر عزة و كرامة اذ يقول:
 يا ليتنى والمنى ليست بنافعة لمالك او لحصن او لسيار
 طوال انضية الاعناق لم يجدو ريح الاماء اذا راحت بأزفار (٢٨)
 واحيانا نراه يصيح في وجه تلك القبيلة صياح اليائس الذي يرى في انتسابه لقبيلته كلاب حتمية جائرة يتمنى استبدالها بقبيلة اخرى اذ يقول:



هل من معاشر غیر کم ادعوهم فلقد سئمت دعاء یا لکلاب (۲۹)

وبواعث هذا الشعور تولد عند القتال بعد تخلى قبيلته عنه اثر جريمته النكراء التي كان سببها ابنه عم له يقال لها العالیه بنت عبيد الله، فقد تعلق بها وصار يلتقيها حلسه بعد غياب اخيها زياد بن عبيد الله. فلما قدم في احد الايام رأى القتال يتحدث إليها، فنهاه وحلف: لئن رآه ثانية ليقتلنه. فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها، فأخذ السيف وبصر به القتال، فخرج هارباً، وخرج في إثره، فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم، فلم يلتفت إليه فبينما هو يسعى، وقد كاد يلحقه، وجد رمحاً مركزاً - وقيل سيفاً - فأخذه وعطف على زياد فقتله. ثم خرج هارباً، وأصحاب القتل يطلبونه حتى استقر به المقام لائذاً بجبل يقال له عمایة فأقام في شعب من شعابه (۳۰) فكان لهذه الحادثة اثر بليغ في حياته اذ فقد بسببها قبيلته التي كانت تعنى في ذلك الزمان الشى الكثير فهى الماوى والحجر الذى يلوذ به وقت الشدائد. ويبدو ان القتال كان يأمل من قبيلته الصصح بعد هذه الجريمة التي حاول تبرير حدوثها واطهار الندم مرات عدة في قصائده اذ يقول:

نهيت زياداً والمقامة بيننا... وذكرته أرحام شعر وهيثم

فلما رأيت أنه غير منته... أملت له كفى بلدن مقوم

ولما رأيت أنني قد قتلته... ندمت عليه أى ساعة مندم (۳۱)

غير ان هذه الكلمات وغيرها لم تجد نفعا ولم ينصت لها ابناء عمومته الموتورون كما ان عساكر الدولة صارت تطلبه وتبحث عنه في كل مكان حتى قيل انها خصصت جعلا لمن يقتله او يدل عليه. وامام هذه التحديات الجسم وجد القتال الكلابى نفسه مغتربا في شعب الجبل لا تؤانسه سوى الوحوش والكواسر اذ تقول بعض الروايات ان القتال اثناء مقامه في عمایة الف نمرا فكان القتال اذا ذهب ليشرب قام النمر يحميه حتى يروى، واذا ذهب النمر ليشرب قام عليه القتال رقيقا حاميا، وكان النمر يصطاد الاروى ويلقيها بين يدي القتال فيأخذ منها ما يكفيه ويدفع الباقي الى النمر كما كان القتال يخرج في الصيد احيانا فيصيب ما يكفيه منه ويلقى ما فضل عن حاجته لصديقه الوحشى (۳۲) وهذه القصة ورد ذكرها ياسهب في قصيدته:

كلانا عدو لو يرى في عدوه مهزا وكل في العداوة مجمل

تضمنت الاروى لنا بطعامنا كلانا له منها سديف ومأكل (۳۳)

ونجد ما يماثل هذه المعانى التي تضمنتها قصيدة القتال في اشعار الصعاليك في الجاهلية والاسلام فهم يفضلون الوحوش على اهلهم كونها - كما يعتقدون - تحمل من العاطفة اكثر من مما يحملها البشر. وذلك امر طبيعى لما عانته هذه المجموعة من عزلة واغتراب اذ يقول الشنفرى

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيْدٌ عَمَلَسٌ وَأَرْقَطٌ زُهْلُولٌ وَعَرَفَاءٌ جِيَالٌ

هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدِعَ السَّرِّ دَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يَحْدَلُ

وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٍ غَيْرِ اتْنِي إِذَا عَرَضَتْ أَوْلَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ (۳۴)

وهذا إقرار صريح وواضح، من الشنفرى الذى ربط ألفة بينه وبين الذئب، والضبع، وله مع الوحوش حكايات وأحاديث حميمة، إذ أصبحوا قومه وعشيرته الجدد؛ مستودع أسرار الشنفرى (۳۵)



إذ صار الذئب والأسد، معادلين موضوعيين في صورته الشعرية، التي يرى من خلالها أعز أصحابه (الصعاليك)، وأقربهم إليه - من بنى الإنسان - ويضفي عليهم صورة الفتوة، والنور، والضياء (٣٦) كما في قوله:

سَراحينَ فُتَيانٍ كأنَّ وُجوهَهُم مَصاييحُ أو لَوْنٌ مِنَ المَاءِ مُدْهَبٌ (٣٧)

وهذه الالفه التي جمعت بين الانسان والحيوان حتى لو اسقطناها على الصعاليك انفسهم وجعلنا من الحيوان الوفي معادلا موضوعيا للانسان الصعلوك تبقى تلك الصور التي نسجها خيال الصعلوك ضربا من الخيال الجامح الذي يعبر عن (خرق محرّمات القبيلة وحرّماتها، ومقدّساتها وطقوسها، والتمرّد على سلطتها، ونبد هيكل تنظيمها، ومؤسسات مجتمعتها، ثم البحث عن مشروع مجتمع جديد، لا تذوب فيه فردية الإنسان، ولا تضمحل شخصيته في رموز القبيلة وأسيادها، ولذا نجد في شعر الصعاليك، - معظمه - النفور من ضمير (الهو)، وصيغة الجمع (النحن)، إلى ضمير (الأنا)، وإن استعمل في صيغة الجمع، فليس للذويان في الجماعة، وإنما قصد التجمع ولم الشتات، ولكن الصعلوك في آخر المطاف، يبقى على تفرّده وفرديته وذاته، بجسده وغريزته وانفعالاته، وليس ذلك الإنسان الذي تضبطه قوانين الآخر، فينصاع لأوامره ونواهي، فيحدّد بمكان، ويُقيّد بزمان، وإنما ينشد حركية الزمان واستمراره نحو المستقبل، مصيره مرتبط بالطبيعة، وليس بالقبيلة، فهو انفصام مكاني، وتميّز عن الآخر) (٣٨)

وبالعودة الى قصيدة القتال الكلابي لا نجد فيها ما يومئ الى التآلف والصدقة التي ابدعتها كتب الادب وبعض الشروحات التي تناولت القصيدة، وانما فيها تصوير اللقاء بين اثنين متعادين كلاهما يحذر شر الاخر ويحذر منه و يتوقاه (٣٩)

وكما يقول احسان عباس (فقد كفانا الجاحظ مناقشه هذه الاسطورة حين قال: واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت اخلاطه. أى ان هذه القصة التي تحدث بها القتال فإنها دليل على ما اصاب اعصابه من اضطراب وما داهم ذهنه من تفرق) (٤٠) وهذا الامر يحيل الى ما ذكرناه سابقا وهو ان الاغتراب يفضي الى ضعف القدرة على التكيف مع المجتمع وقد يتبع هذا الاحساس تخيلات وحده منعش وهذيان وغير ذلك من التدايعات النفسية.

صدى الاغتراب في أشعار القتال الكلابي:

جسدت بعض النصوص الشعرية التي انتجتها قريحه القتال الكلابي صورا واضحة لقهر الاغتراب، ويبدو ان طبيعته الشعر - بشكل عام - تتأهل هذا الامر (لأن كل شعر هو تدفقات صورته، لا محدودة، وتخليقات شعورية ولا شعورية تأتي في لحظة غياب الشاعر عن واقعه الحسي. فكل شعر - إذن - نوع من العلو المعترّب في وقت الخلق الشعري) (٤١). يضاف الى ذلك العوامل الظروف المادية والاسباب الشخصية التي تحدثنا عنها سابقا وبلا شك ان هذه الظروف والاسباب تلعب دورا كبيرا في تغذية مضامين الشعر، وتحديد اتجاه الشعر او تغييره، وتتداخل العوامل تداخلا معقدا، الى الحد الذي تصبح فيه عملية فرز الاسباب الرئيسية عن



الثانوية في تحديد نوع المؤثرات (المغربة) من اشق العمليات التحليلية، لان نفس الشاعر المرهفة، والشديدة الحساسية، تكبر فيها الانفعالات او تصغر، خارج امكانيات القياس الاعتيادية. فاستجابات الشاعر، وردود فعله، ليست بالأمر الذي يسهل تعيين حدوده(٤٢) ومن هذه الردود التي تعكس نزق القتال الكلاسي وانعدام التواصل بينه وبين قبيلته اذ (يعى وجوده بوصفه كيانا منفصلا عن الآخرين، وانه ما عاد متميا نفسيا الى المجتمع)(٤٤) اذ يقول:

هل من معاشر غيركم ادعوهم فلقد سئمت دعاء يال كلاب
ولقد لحتن لكم لكيما تفهموا ولحتن لحنا لحننا ليس بالمرتاب (٤٣).

ونلمح في البيت الثاني قوله: (ولقد لحتن لكم) أى بينت لكم بواضح القول وفصيحه لكن دون جدوى فانتم لا تلبون المستغيث ولا تعبثون بقوله فهو يعزو اللوم إلى قبيلته التي تضببت عندها الرؤية وفقدت البوصلة في تحديد الركب حادت عنه وليس هو من أصبح يبحث عن هوية وانتماء جديدين لذلك استحضرت الشاعر في بعض ابياته احيازا بديلة استعاض بها عن مجتمعه (القبيلة) اذ يقول:

جزى الله خيراً والجـزاء بكفه عَمَايَةَ عَنَّا أُمَّ كُلِّ طَرِيدٍ
فلا يزد هيهما القومُ إن نزلوا بها وإن أرسل السلطان كل بريد
حمتنى من كل عطاء عيطلٍ وكلَّ صَفًّا جَمُّ القَلَاتِ كَوُودٍ(٤٥)

فَعَمَايَةَ - المكان القفر الاصم - الذى دعا له الشاعر بالخير هو المعادل الموضوعى للقبيلة والبديل الذى وجد فيه الملاذ الآمن الذى لم يجده في قبيلته، وهذا الفقد او الاستلاب يمثل صورة من صور الاغتراب التي يجنح معها الشاعر الى نسج صور مثلى بديلة تتلبد فيما وراء الأشياء. وفي نص اخر يقول الشاعر:

سأعتب أهل الدين مما يريهم وأتبع عقلى ما هدى لى أول
أو الحق بالعنقاء فى أرض صاحبة أو الباسقات بين غول وغلغل
وفى باحة السعقاء أو فى عمايئة أو الأدمى من رهبة الموت موئل
ولى صاحب فى الغار هدك صاحباً هو الجون الا انه لا يعلل
اذا ما التقينا كان جل حديثنا صمات، وطرف كالمعابل اطل(٤٦)

وهنا يجد الشاعر مجتمعاً خاصاً يأترف فيه الانسان مع الوحش بعدما رفض مجتمعه بكل ما يحمل من عادات وقيم ليقوم لنفسه (يوتوبيا) معزولة عن واقعه الأليم حتى لا يتحول الاغتراب إلى جحيم لا يطاق اذ سعى الشاعر إلى تجاوزه، أو التخفيف من حدته وآثاره من خلال منهج تعويضى الذى بنى فيه عالمه الخاص الممزوج بالخيال الحالم بعدما صار عالمه الواقعي مجسداً بهذا القول المنسوب الى الشاعر:

كأن بلاد الله فيه وهى عريضة على الخائف المطلوب كفه حابل
يؤدى اليه، ان كل ثنية تيممها توحى اليه بقاتل(٤٧)



*كالانقطاع عند الزهاد والمتصوفة الذين يتحدثون عن غربتهم في هذه الدنيا.

- (١) الاغتراب في حياة المعري وادبه، د. حسين جمعة - مجلة جامعة دمشق - المجلد ٢٧ - العدد الاول + العدد الثاني ٢٠١١م: ٢٣
- (٢) ينظر: الغربة في الشعر الجاهلي، د. عبد الرزاق الخشروم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق-١٩٨٢م: ٢٣
- (٣) ينظر: الاغتراب في حياة المتنبي وادبه: ٢٣
- (٤) الشعور بالاغتراب عند ابي العلاء المعري والبير كامو، عبد القادر توزان - اطروحة دكتوراه - كلية الآداب واللغات - جامعة الجزائر ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦م: ٢٤
- (٥) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، - المجلد الثالث، تحقيق: عبد الحميد هندواوي - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١ - ٢٠٠٣ م: ٢٧١
- (٦) ينظر: معجم المصطلحات الصوفية - عبدالمنعم الحفني - ط ١ - دار المسيرة - بيروت - ١٩٨٠: ١٨٦
- (٧) لسان العرب، ابن منظور - لسان العرب - الجزء الخامس - باب العين - مادة غ ر ب - دار المعارف القاهرة - مصر - ط ٢ - ١٩٨١ م: ٣٢٢٥
- (٨) المعجم الأدبي - جبور عبدالنور - ط ٢ - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨٤: ٨٧
- (٩) الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد) - دراسة - محمد راضي جعفر، من منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩٩ م: ٥
- و ينظر: غربة المثقف العربي، د. حليم بركات، م المستقبل العربي، ع ٢. تموز، ١٩٧٨: ١٠٦
- (١٠) إشكالية الاغتراب في الفكر والأدب، ايمان العامري، مجلة اصوات الشمال، مجلة. عربية. ثقافية. شاملة <http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=37256>
- (١١) الاغتراب، نبش في مفهوم محوري داخل حقل الإنسانيات، د. فريد أمعشسو، صحيفة العلم، لسان حزب الاستقلال، ٢٦/٤/٢٠١٢م.
- *- للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (حسن حنفى: الاغتراب الديني عند فيورباخ، عالم الفكر، ع. ١، مج. ١٠، ١٩٧٩).
- (١٢) ينظر: الاغتراب عند إيريك فروم، حسن محمد حسن حماد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥: ١٤
- (١٣) معادلة الاغتراب في الثقافة العربية المعاصرة، الحقيقة الغائبة - قراءة جديدة في أوراق العباسيين، أ. د. على اسعد وطفه، مجلة حركة مصر المدنية - مجلة مصرية - علمانية - ليبرالية إجتماعية
- Posted on February 27, 2012**
- (١٤) ذاتنا المغتربة من منطلقات فكر اريك فروم، محمد طه حسين، الحوار المتمدن - العدد: ٤٧٦٠ - ٢٠١٥
- ٢٧ / ٣ /
- (١٥) ديوان القتال الكلابي: ١٠
- (١٦) المصدر نفسه: ١١



- (١٧) ينظر: التطور والتجدد في الشعر الاموى، شوقي ضيف، دار المعارف المطبوعة ط ٢٦:٨
- (١٨) حول الاحوال الاقتصادية المتردية لصعاليك العصر الاموى ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الاموى د. حسين عطوان، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٠ م: ١٥١
- (١٩) ينظر: ديوان القتال الكلاسي: ٩
- (٢٠) ينظر: وعاظ السلاطين، على الوردى، دار كوفان - لندن، ط ٢، ١٩٩٥ م: ٣٦
- (٢١) ينظر: ديوان القتال الكلاسي: ٩
- (٢٢) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، المؤسسة السعودية بمصر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٨٠ م: ٤٣٧
- (٢٣) ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه راينهرت، (بيروت، ١٠٤١ هجرية - ١٩٨٠ م): ٢٣٦ - ٢٤٢
- (٢٤) ينظر: مقالات في الشعر ونقده، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧: ٧٣.
- (٢٥) يُنظر: مجلة ابحاث البصرة (العلوم الانسانية) بحث عن طبيعة الاغتراب لبعض النصوص (قديمًا وحديثًا)، العدد (٣)، ٢٠١١ م: ١٠٥
- (٢٦) المصدر نفسه: ١٠٦
- (٢٧) ديوان القتال الكلاسي: ٥٤-٥٥
- (٢٨) المصدر نفسه: ٥٥
- (٢٩) المصدر نفسه: ٣٦
- (٣٠) الاغانى، ابو الفرج الاصفهاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت - لبنان الطبعة الثانية، ١٩٨٦: ١٤٠/٢٤
- (٣١) ديوان القتال الكلاسي: ٨٩
- (٣٢) ينظر: الاغانى ٢٠-٦٠
- (٣٣) ديوان القتال الكلاسي: ٧٨
- (٣٤) ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك - جمعه وحققه وشرحه: إيميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربى، الطبعة الثانية، ١٩٩٦: ٥٩
- (٣٥) المصدر نفسه: ٥٩
- (٣٦) شعر الصعاليك. قراءة في المتن، محمد برونه، المجلة الجزائرية فى الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية ع/ ٤٦ / ٢٠٠٩: ٣٣
- (٣٧) ديوان الشنفرى: ٢٨
- (٣٨) شعر الصعاليك. قراءة في المتن: ٤٥
- (٣٩) ينظر: ديوان القتال: ٢١
- (٤٠) المصدر نفسه: ٢١



(٤١) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى، عزيز السيد جاسم، دار الاندلس، بيروت- لبنان، ١٩٨٥م: ١٠-

١١

(٤٢) المصدر نفسه: ١١

(٤٣) ديوان القتال الكلايبي: ٣٦

(٤٤) الصلعة والاغتراب لدى الشعراء السريان-جان دمو وسركون بولص انموذجان، قاسم حسين صالح،

الحوار المتمدن-العدد: ٤٢٩٥ - ١٢/٤/ ٢٠١٣

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=389782>

(٤٥) ديوان القتال الكلايبي: ٤٥

(٤٦) المصدر نفسه: ٧٦-٧٧

(٤٧) المصدر نفسه: ٩٩